



قيمة تراثنا

د . عبدالله بن ضيف
الله الرهيلي

وأفعال محمد الأبي تحتوي خزائن أحكام يكتشفها ويستخرجها علماء أمته، ثم يكون هذا الاختزان منه وذاك التوفيق للعلماء المستخرجين معجزة من معجزات نبوته؟» هذا كلام الشيخ مصطفى صبري.

قلت: وغير كتاب «المبسوط» مئات أو آلاف المؤلفات التي تتكون من عشرات الأجزاء ومئات آلاف الصفحات فإذا ما سُرحت فيها فكر انكشفت لك عن سداد منهج، وسمو فكره .. وتصور، ودقة أسلوب، وجلال مقصد وهدف!

ولعلنا في حلقة قادمة - بإذن الله - نتناول الحديث عن تراث الإسلام في مختلف خصائصه هذه واحدة تلو الأخرى لنكتشف الحقيقة لطالها.

ومن الأئمة من ابتكر علماً رصيناً أصبح مرجعاً للناس من بعده وأصبح هو فيه حجة ومنهم من كان متقننا في أسلوبه وأدبه، ومنهم من كان متالقاً في تحقيقه إلى آخر ما عندهم من محاسن وفضائل ومنهم من جمعها كلها أو جلها.

هذا هو الإمام الشافعي محمد بن إدريس - علي سبيل المثال - إمام في اللغة، وفي الكتاب والسنة، وفي علومهما، وفي الفقه وأصوله وغيرها من العلوم، وهو مبتكر علم أصول الفقه، قال عنه الفخر الرازي: «كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها وترجيحها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه ووضع للفقهاء قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم

تراث الإسلام فريد سواء من ناحية الكم، أو المادة والخصائص والمنهج، فمهما اتجهت له من أي ناحية الفيته عجيباً فريداً سائماً، وما يتامله عاقل إلا لاحت له هذه السمة فيه، حتى قال الشيخ مصطفى صبري ما خلاصته: «وإني أعتبر علم الحديث والفقه وأصول الفقه، تلك العلوم التي دونها علماء الإسلام وقاموا في تمحيصها بمساع جبارة لم تر عين الديننا مثلها في أي طائفة من أهل العلم المتطوعين بالبحث عن الحقائق العلمية، لا في سبيل الوصول إلى الغايات الفانياتيل في سبيل الحصول على رضوان من الله أكبر .. ثم اتخذتها دول الإسلام العظيمة من العرب والترك والمغول أساساً لقوانينها في القرون الطويلة التي كان المسلمون فيها أصحاب الكلمة النافذة على وجه البسيطة وحماة الحقوق الصادقين لا يجرمنهم شأن قوم على أن لا يعدلوا .. وقد صدق القول بأن الإسلام دين ودولة.

اعتبر هذه العلوم وعلماءها معجزة من معجزات الإسلام الباقية بعد عصر نبيه صلى الله عليه وسلم. نعم أنا أكبر علم الحديث والفقه وأصول الفقه إلى حد عدها من معجزات الإسلام مع عدم كونها من الخوارق الحقيقية لسنن الكون.

فهل يمكن أن يكون محمد الأبي صلى الله عليه وسلم حكيماً فقط، وإن شئت فقل كما قالوا: عبقرياً فقط، لكن إلى حد أن يستخرج علماء الإسلام من أقواله وأفعاله قوانين كافية لإدارة الدول الكبيرة وسيادة الدنيا والآخرة وقد بسط أحد هؤلاء العلماء بتلك القوانين في كتاب يكون ثلاثين مجلداً على مذهب الإمام أبي حنيفة في الفقه سماه «المبسوط» .. هل يمكن أن تكون أقوال

بلا رتوش



خليل البنا

فن الاستغفال

بعض الناس يروق لهم استغفال الآخرين وخداعهم ونسوا أو تناسوا بأن فن الاستغفال لا يدوم وحبال الكذب قصيرة.. وأساليب الخداع - مهما أحيطت من أغلفة ورتوش - مصيرها الغشل المحتوم ومع ذلك فهم يستمرنون هذه العملية.. يصدقون كذبهم وبيئاتهم وإفكهم وخداعهم ليصبح في نظرهم حقيقة لا تحتاج إلى برهان وغاب عن بصيرتهم الحكمة التي تقول (تستطيع أن تخدع بعض الناس بعض الوقت وتستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت، والكاذب من فذلة وذكاء ومقدرة فلا بد وأن ينكشف في نهاية الأمر، ويصبح عبرة لمن يعتبر. ويؤكد تدني المستوى الذي وصل إليه حينئذ لا يعول على كلامه ولا يصدق حديثه، ولا يطمئن جانيه، وسيهرب الآخرون منه كهروبهم من وباء أو داء خبيث.. فهل بإمكان مثل هذا الإنسان أن ينتفع من العالم كله إذا ما خسر نفسه وخسر الآخرون!! وهل هناك أسوأ من هذا المصير!؟

الشرع كنسبه أرسطاطاليس إلى علم العقل».

وقال بدر الدين الزركشي في كتاب البحر المحيط في أصول الفقه - نقلاً عن أحمد شاکر: «الشافعي أول من صنف في أصول الفقه صنفه كتاب الرسالة وكتاب أحكام القرآن واختلاف الحديث وإبطال الاستحسان وكتاب جماع العلم وكتاب القياس». وهنا علق الشيخ أحمد شاکر فقال: «إن أبواب الكتاب «يعنى الرسالة»، ومسائله التي عرض الشافعي فيها للكلام على حديث الواحد والحجة فيه وإلى شروط صحة الحديث وعدالة الرواة، ورد الخبر المرسل والمنقطع إلى غير ذلك.. هذه المسائل عندي أدق وأعلى ما كتب العلماء في أصول الحديث، إن المتفقه في علوم الحديث يفهم أن ما كتب بعده إنما هو فروع منهن وعالة عليه، وإنه جمع ذلك وصنّفه على غير مثال سبق لله أبوه.

ويواصل أحمد شاکر قائلاً: «وكتاب الرسالة بل كتب الشافعي أجمع، كتب أدب ولغة وثقافة قبل أن تكون كتب فقه وأصول ذلك أن الشافعي لم تهجه عجمة ولم تدخل على لسانه لكثرة، ولم تحفظ عليه لحنه أو سقطه قال عبدالمك بن هشام النحوي صاحب السيرة، «طالت مجالستنا للشافعي فما سمعت منه لحنه قط ولا كلمة غيرها أحسن منها»، وقال أيضاً «جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة إلا إذا اعتبرها المميز لا يجد كلمة في العربية أحسن منها».

ويقول عنه الجاحظ: نظرت في كتب هؤلاء النبعة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تاليفاً من المظلي، كان لسانه ينظم الدر.. ويضيف الشيخ أحمد شاکر معلقاً: «فكتبه كلها مثل رائعة من الأدب العربي النقي، في الذروة العليا من البلاغة، يكتب على سجيته ويملي بفطرتة لا يتكلف ولا يتصنع، أفصح نثر تقرأه بعد القرآن والحديث، ولا يسامه قائل ولا يدانيه كاتب.

وإني لأرى أن هذا الكتاب (كتاب الرسالة) ينبغي أن يكون من الكتب المقرّوة في كليات الأزهر وكليات الجامعة وأن تختار منه فقرات لطلاب الدراسة الثانوية في المعاهد والمدارس ليفيدوا من ذلك علماً بصحة النظر وقوة الحجة، بياناً لا يرون مثله في كتب العلماء وآثار الأدباء.

ولا شك في أن اقتراح أحمد شاکر له وزنه وهو جدير بالنظر والدراسة وإن كانت مستويات الطلاب في هذه المراحل اليوم قد هبطت عن ذي قبل ولكن لا مشكلة إلا ولها علاجها، ومستوى المتعلمين العلمي المطلوب هو أحق ما صرفت الهمم والجهود للعناية به، ليكونوا في مقام من هو أهل لحمل أمانة العلم، وللارتباط بمصادره وتراثه العلمي، وفي مقام من يفهم هذا التراث ويستوعبه، بل ويقدمه للناس في إخلاص وتحقيق وسلاسة ويسر وهذا هو واجب الأمة تجاه الأجيال وتجاه تراثها وتجاه نفسها: تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً والله الموفق. □